نماذج من كتابات حول يوسف شمعون السمعانيّ

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

إلى الابن الحبيب يوسف السّمعانيّ أحد رؤساء بلاطنا ونجيِّنا وجليسنا الملازم لنا

أيّها الابن الحبيب السّلام والبركة الرسوليّة

(...) قد جعلناك بناءً على ما لنا من وافر الثقة بأمانتك واستقامتك وعلمك ودرايتك وغيرتك الدينيّة وأخذًا براي [برأي] إخوتنا المحترمين كاردينالي الكنيسة الرومانيّة المقدّسة المتولّين إدارة مهامّ مجمع نشر الإيمان المقدّس وعيّناك وأوفدناك بسلطاننا الرسوليّ بقوّة خطّنا هذا قاصدًا من لدنُّا ولدن الكرسيّ الرسوليّ المشار إليه... فنخوّلك السلطان على النّداءِ بالمجمع وعقده وأن يكون لك فيه حقّ إبداء الرّأي مع يوسف بطرس البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة المشار إليهم...

كُتِبَ في رومية لدى كنيسة مريم الكبرى مختومًا بخاتم الصيّاد في الـ٢٦ من تشرين الثّاني سنة ١٧٣٥ وهي السنة السّادسة لحبريّتنا.

البابا اكليمنت الثاني عشر، البراءة الأولى

المجمع الإقليمي الذي عقده في جبل لبنان السيّد السامي الاحترام بطريرك طائفة السريان الموارنة الإنطاكي بمؤازرة السيد الفائق الاحترام يوسف سمعان السمعانيّ قاصد الكرسيّ الرسوليّ، ترجمه عن اللاتينيّة المطران يوسف نجم، مطبعة الأرز، جونية، ١٩٠٠، ص ٦-٨.

###

إلى الابن الحبيب يوسف السّمعاني أحد رؤساء بلاطنا وجليسنا السمير الملازم لنا

أيّها الابن الحبيب السّلام والبركة الرسوليّة

كنّا منذ حين أنفذنا إليك رسالة من نوع البراءة وبها جعلناك من لَدُنّا ولدن الكرسيّ الرّسوليّ قاصدًا إلى الإخوة المحترمين يوسف بطرس بطريرك أنطاكية ورؤساء أساقفة الطّائفة المارونيّة وأساقفتها. وفي جملة ما كنّا فوّضنا إليك حقّ إبدإ الرّأي ائتمارًا مع البطريرك وسائر من أشرنا إليهم من رؤساء الأساقفة في المجمع الإقليميّ على تقدير انعقاده هناك كما بيَّنا تفصيلًا في تلك رسالتنا [رسالتنا تلك] السّابقة. وها إنّا الآن بما بنا من الرّغبة في مزيد إكرامك وإيثارك بإنعام خاصّ نؤتيك بسلطاننا الرّسوليّ ونوليك بقوّة هذا الخطّ حقّ لبس التّاج في ذلك المجمع الإقليميّ واستعماله عن حرّيّة وجواز بعد أن نحلّك بقوّة خطّنا هذه ونثق بأنّك في حلّ من وثاق أيّ حرم وربط ومنع ومن سائر الأحكام والتّأديبات والعقوبات سواء كانت من قبل النّاموس أو من قبل الإنسان على إطلاق السّبب والعلّة فيما لو كنت موثقًا بشيءٍ من ذلك بلا استثناء تمهيدًا لحصولك على نتيجة هاته الرّسالة ولا عبرة بما يُضادّ ذلك.

وكُتب في رومية لدى كنيسة مريم الكبرى تحت خاتم الصيّاد في ١٢ ك١ سنة ١٧٣٥ وهي السنة السّادسة لحبريّتنا.

البابا اكليمنت الثاني عشر، البراءة الثانية

المجمع الإقليميّ الذي عقده في جبل لبنان السيّد السامي الاحترام بطريرك طائفة السريان الموارنة الأنطاكيّ بمؤازرة السيّد الفائق الاحترام يوسف سمعان السمعاني قاصد الكرسيّ الرسوليّ، ترجمه عن اللاتينيّة المطران يوسف نجم، مطبعة الأرز، جونية، ١٩٠٠، ص ٩.

###

فالسمعانيّ الكبير أي يوسف سمعان ولد في ٢٧ تموز سنة ١٦٨٧ ودخل مدرسة رومية وعمره ثماني سنوات. ولما أتمّ علومه؛ وعزم على العودة إلى لبنان عهد إليه البابا اكليمنضوس الحادي عشر أن يعمل فهرستًا لاتينيًّا للكتب الشرقيّة ويلخّص فيه فحاويها، ففعل وعلّق على الكتب حواشي نفيسة بيّنت للبابا أن يوسف سمعان السمعانيّ أهل لأن يكون مترجمًا للكتب العربيّة والسريانيّة والكلدانيّة التي في المكتبة الفاتيكانيّة.

وفي السنة ١٧١٠ نال درجة الملفنة وعُيِّن مستشارًا في لجنة إصلاح الأسفار المقدّسة التي يستعملها أبناء الشرق. وفي السنة ١٧١٥ أوفده البابا للبحث عن الكتب المخطوطة في الأقطار فأحضر منها إلى رومية كتبًا وافرة العدد من جميع نواحي المشرق، فكانت مادّة لكتابه الشهير :" المكتبة الشرقيّة الفاتيكانيّة".

وفي سنة ١٧٣٠ سمّاه البابا حافظًا لهذه المكتبة العظمى، ثمّ صار رئيسها. ساعده على هذا العمل الجليل حذقه بضع عشرة لغة فأخرج خلاصات الكتب الشرقيّة إلى اللاتينيّة.

مارون عبّود،

من **المجموعة الكاملة**، المجلّد الأوّل، **في الدراسة**، أدب العرب، دار مارون عبّود، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨ -١٩٧٩ م، ص ٤٠٧.

###

كلّما أثرنا مسألة الليتنة مع السمعانيّ أو سواه ننسى الوجه الآخر لهذه المسألة، وجه اللبننة أو الدور الفكريّ والحضاريّ الذي قام به اللبنانيّون في أوروبّا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، واستطرادًا الدور الفكريّ والحضاريّ الذي قام به اللبنانيّون في الولايات المتّحدة الأميركيّة في القرن العشرين. وأرى أنّ هذه المسألة تشكّل عصب وجودنا المعاصر، إن أهملناها أهملنا وجهًا مشرقًا لحضورنا الثقافيّ الحيويّ والفاعل في العالم.

لقد رأى الخوري يواكيم مبارك أنّ السمعاني يشكّل رهان الحداثة الأوروبيّة بقواعدها العلميّة والفلسفيّة المستمدّة من التراث اليونانيّ الإغريقيّ، كما يشكّل رهان الأصالة المشرقيّة، ببعديها العربيّ والإسلاميّ، ورهانًا رومانيًّا مسكونيًّا يقظًا ومتّجهًا باتجاه الحرّيّة. قد

تُدخلنا هذه الطروحات في بهو الجدل الفكريّ الحادّ والمعمّق حول حركة التنوير اللبنانيّة والعربيّة منذ مطلع القرن السابع عشر، الأمر الذي يتطلّب دراسة مستقلّة. لكنّني في هذا السياق أضيف، ختامًا، مقولتين سمعانيّتين اثنتين: المقولة الأولى: عبور لاهوتيّ مشرقيّ من العقل إلى الإيمان يمكن أن يتوازى، بنسب مختلفة، مع العبور الأوروبيّ؛ والمقولة الثانية: عبور أدبيّ من السريانيّة إلى العربيّة، ومنها إلى اللاتينيّة فعودٌ إلى العربيّة. ويمكن لهذا العبور، بشقّيه، أن يشكّل الدائرة القطبيّة في ترسيخ العربيّة لغة فكر، ولغة أدب، ولغة إيمان قديم حديث كقِدَم العالم ولبنان، وكحداثة التحوّل الجادّ من الرقاد السابق إلى صلب حركيّة الإبداع الخلّاق، وصلب حيويّة التنوير الدفّاق، وحقيقة التحديث النهضويّ الفاعل فينا حتّى اليوم.

أمين ألبرت الرّيحاني،

"ذهنيّة العبور السمعانيّ"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٢٢.

###

أليس من الممكن– بل الضروريّ– أن يُصار إلى تعزيز هذا المشترك اللاهوتيّ بين العقيدة المسيحيّة والعقيدة الإسلاميّة على النحو الذي يؤسّس لحوار حضاريّ جوهريّ بين المسيحيّة والإسلام، يكون أساسًا لميادين الحوار الأخرى المتعدّدة وللقيم المشتركة بين هاتين الديانتين؟

إنّ خطوة كهذه سيكون من نتائجها أن توقف علماء الديانتين، ومن ثمّ أتباعهما، لا على المشترك الجوهريّ والثابت بينهما فحسب، بل على ما يتعدّى ذلك أهميّة في نظري، وهو الجانب التاريخيّ البشريّ في مسائل الاختلاف؛ إذ يجب أن نعترف أنّنا، في المسيحيّة والإسلام، قلّما نميّز بين ما هو دين وبين ما هو فكر دينيّ، وأنّ الثابت هو الدين، وأمّا الفكر الدينيّ فهو متغيّر ومتحوّل يتمّ إنتاجه على يد البشر في التاريخ وظروفه وملابساته المختلفة.

وعلى سبيل المثال، هناك مسألة وحدانيّة الخالق– وهي المسألة المركزيّة في كلا الديانتين– تبدو في جوهرها واحدة، وهي الأساس الذي تقوم عليه الديانات الإبراهيميّة. إلّا أنّها في تمثّلها البشريّ التاريخيّ تبدو مختلفة بين تمثّل ينزع إلى التجريد كما هو الأمر في الإسلام، وتمثّل ينزع إلى الأنسنة كما هو في المسيحيّة. إنّ الذات الإلهيّة– كما في التصوّر الإسلاميّ والمسيحيّ معًا – هي ذات مجرّدة متسامية مطلقة وصفاتها عين ذاتها لا يدرك العقل البشريّ ماهيّتها وإنّما يصل إلى الإيمان بها عن طريق آثارها. وما يورده العلّامة السمعانيّ في كتاب الإلهيّات يكاد يدور بمعظمه حول هذا. وهو لا يختلف في معظم أدلّته وبراهينه عن الغزالي وسائر علماء الكلام الإسلاميّين الذين خاضوا في هذه المسائل. ومع ذلك فإنّ المفهوم الذي يطفو في وعي الكثيرين من المسلمين والمسيحيّين أنّ ثمّة فارقًا جوهريًّا بين الإسلام والمسيحيّة في النظر إلى مسألة التوحيد.

إنّ العلّامة السمعانيّ في مطارحاته وبراهينه الجدليّة الدقيقة لا يُبقي مجالًا للشكّ في تبنّي المسيحيّة لعقيدة التوحيد، وهو يرى أنّ العقل يستقلّ في إدراك وجود الله ووحدانيّته وفي تجرّده عن المحسوس وفي كونه واجب الوجود وصفاته عين ذاته. وأمّا ما عدا ذلك، أي عقيدة الأقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس)، فإنّه لا يرى أنّ العقل يستقلّ في معرفتها بمعزل عن النصّ، أي الوحي.

وإذن، فإنّ علماء الكلام المسلمين وعلماء اللاهوت المسيحيّين يقرّون بأنّ للعقل أحكامًا مستقلّة تقوم على الدليل العقليّ، وهم يسلِّمون- في مجال الإلهيّات- بما يحكم به العقل أو بما يستقلّ في معرفته ويعتبرونه أساس العقيدة. أمّا ما عدا ذلك من مسائل الدين فإنّهم يبرهنون عليه، ولكن بعد التماسه من النصّ، وهذا ما يمكن الاختلاف فيه حتّى داخل الديانة الواحدة؛ فالنصّ- (الوحي)، وإن كان مقدّسًا، إلّا أنّ وعيه وتمثّله، أي تفسيره، لا يكتسب صفة المقدّس، وإنّما هو قابل للتأويل، أي للتعدّد والاختلاف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

العلاّمة محمّد حسن الأمين،

"الإلهيّات: قراءة في البرهان والمشترك اللاهوتيّ المسيحيّ الإسلاميّ"، من **كتاب الإلهيّات للعلاّمة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٣٢-٣٣.

###

فنبغ في العلوم اللاهوتيّة والفلسفيّة، وتضلّع من الآداب الشرقيّة وفنّ الخطابة، وبرع في علم التاريخ وأصول الشرع والقانون، وتوصّل إلى إتقان العديد من اللغات الغربيّة والشرقيّة، وأمسك بناصيتها جميعًا، ونال مأربه منها حتّى قيل عنه إنّه كان يتقن التحدّث والكتابة في نحوٍ من ثلاثين لغة.

إنّه ليصعب علينا أن نحصر اختصاص السمعانيّ في علم من العلوم، بل يبدو وكأنّ جميع العلوم كانت من اختصاصاته. فلمّا أنهى دروسه العليا بنجاح وتفوّق، سنة ١٧٠٨، عهد إليه البابا اكليمنضوس الحادي عشر أن يضع فِهْرِستًا لاتينيًّا للمخطوطات الشرقيّة. فأتمّ ذلك على أحسن ما يرام، وجاء فهرست تلك المخطوطات محكمَ الوضع، متناسق التبويب، مطّرد الفصول، غنيًّا بالتعليقات النفيسة، والحواشي المفيدة. وهذا ما حمل قداسة البابا آنذاك إلى تعيينه سنة ١٧١٠ مترجمًا للكتب العربيّة والمخطوطات السريانيّة المحفوظة في المكتبة الفاتيكانيّة، ومن ثمّ مستشارًا في اللجنة التي وكل إليها إعادة النظر في كتب الشرقيّين."

فنال السمعانيّ، وهو في العقد الثالث من حياته، ثقة الأحبار الرومانيّين الذين عاش تحت أكنافهم وفي ظلّ رعايتهم[1]. وفي سنة ١٧١١ ثُبّت في وظيفتين مرموقتين في الدوائر الرومانيّة قبل أن يرسله البابا اكليمنضوس الحادي عشر سنة ١٧١٥ إلى الشرق ليجمع المخطوطات القديمة من كنائس ومكتبات وأديرة مصر وسوريا وفلسطين ولبنان.

الأب د. بولس صفير،

"هل الإلهيّات نتاج فكريّ لاهوتيّ لتلامذة مدرسة روما المارونيّة؟"، من **كتاب الإلهيّات للعلاّمة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٣٨-٣٩.

###

[1] عاصر السمعانيّ ستّة أحبار أعظمين، هم: اكليمنضوس الحادي عشر (١٧٠٠-١٧٢١)، اينوشنسيوس الثالث عشر (١٧٢١-١٧٢٤)، بنديكتوس الثالث عشر (١٧٢٤-١٧٣٠)، اكليمنضوس الثاني عشر (١٧٣٠-١٧٤٠)، بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨)، اكليمنضوس الثالث عشر (١٧٥٨-١٧٦٩).

كانت محاولة السّمعانيّ الرامية إلى تنظيم شؤون الطائفة المارونيّة، بتوجيه من الفاتيكان، وربّما بوعي ضرورته من قبل خرّيجي المدرسة المارونيّة، تستدعي، في الوقت نفسه، تنظيمًا لاهوتيًّا واضح المعالم يقوم فيه التعليم النظريّ جنبًا إلى جنب مع التعليم الإيمانيّ. وهكذا نَقَلَ إلى الموارنة وعبرهم إلى الملإ المشرقيّ خلاصة اللاهوت المدرسيّ السكولاستيّ الكاثوليكيّ. وبذلك يكون قد هيّأ للمجمع اللبنانيّ الماروني الذي عُقد عام ١٧٣٦ أسًّا عقديًّا يرفد الطرح الإداريّ التربويّ الرائد الذي كان في جملة وجوهه فرض التعليم الإلزاميّ المجّانيّ وتعليم البنات... قبل التدبير المماثل الذي اتّخذته الثورة الفرنسيّة بأكثر من نصف قرن!

نعود إلى اعتماد يوسف شمعون السمعانيّ اللغة العربيّة وسيلة بيان تعليميّة تربويّة تَوجَّه بها إلى الموارنة، بوجه خاصّ، وإلى أيّ طالب علم، بصورة عامّة. في اعتقادي أنّه قصد إلى ذلك قصدًا، وصولًا إلى هدفه المذكور، وانطلاقًا من واقع قائم، في الوقت نفسه. إنّه، رغم معرفته لغات كثيرة، شرقيّة وغربيّة؛ ورغم نشأته، منذ نعومة أظفاره وهو ابن تسع سنوات في روما، على لغات غير العربيّة هناك، مثل الإيطاليّة واللاتينيّة واليونانيّة وسواها بلغت، بحسب الباحثين في تراثه، أكثر من ثلاثين لغة، اختار العربيّة للسببين المذكورين اللّذين يُتمّ واحدهما الآخر. فالعربيّة كانت، منذ القدم، منتشرة في جبل لبنان، إلى جانب أختها السريانيّة، وكذلك في مناطق أخرى من لبنان، بطبيعة الحال، وكان الموارنة الذين جمعوا بينهما في حياتهم اليوميّة وشؤونهم الثقافيّة، يتحوّلون شيئًا فشيئًا إلى العربيّة. وقد وعى السمعانيّ هذا الواقع، كما وعى أهميّة تقادم التراث الكلاميّ والفلسفيّ والعلميّ المدوَّن بالعربيّة، وإن نالها، كما أصاب حضارتها، وهنٌ وإسفاف بعد غزوات المغول وسيطرة العثمانيّين الذين اختاروا الفارسيّة والتركيّة–العثمانيّة فانحسرت دائرة إنتشارها الثقافيّ إلى الأديار والمساجد والمدارس المتفرّقة.

فيكتور الكك،

"منهجيّة السمعانيّ في برهانه الإلهيّ الموارنة، سَدَنة الفلسفة بالعربيّة بعد ابن رشد"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٥٦–٥٧.

###

في كلّ هذا يتبيّن جليًّا أنّ السمعاني أكثر من مارونيّ تليتن فأضاع ذاتيّته. إنّه علّامة مارونيّ أخذ بالحداثة الأوروبيّة في زمانه، فقدّم للعالم خلاصة فكريّة مميّزة فيها الشرق والغرب متناغمان، والإيمان والعقل متكاملان، فيها الفلسفة المدرسيّة التقليديّة والحكمة المشرقيّة والعلم الحديث. في هذه الحال، لا يجوز أن نجرّد المعلّم السمعانيّ من مشرقيّته وأصالة مارونيّته. طبعًا، ليس كلّ المعلّمين بذات الشخصيّة والمنهجيّة. ولكن، يحقّ التّساؤل: هل أثّر أيّ ممّن اعتدنا أو يسعنا أن ندعوهم معلّمين موارنة مشرقيّين، في مصير الكنيسة المارونيّة بقدر ما أثّر السمعانيّ بأقواله وكتاباته وأعماله؟ هل أَسْمَعَ أحدُ هؤلاء المعلّمين صوتَنا إلى العالم بقدر ما صنعه السمعانيّ في مؤلّفاته جميعًا، لا سيّما في ما كتبه باللّغات الأجنبيّة؟ ما الأفضل لنا: معلّم يطلعنا على ما نحن فيه ولا يأتينا بجديد غير ما يجده فينا، أم معلّم يطلعنا على ما نحن فيه وعلى ما يمكننا أن نكون إذا ما أخذنا بالجديد في العالم وفتحنا لطاقاتنا آفاق الإبداع والتّطوّر؟ ليست الأصالة الحقيقيّة أن ننعزل وننكفئ على ذواتنا ونتحجّر، ولا الحداثة أن نتنكّر لماضينا ونأخذ بأيّ جديد ونعيش في غربة عن ذواتنا. قد يكون الحلّ الأمثل لنا في الجمع والمؤالفة بين الأصالة والحداثة، أن يكون المارونيّ بيننا أو

الأرثوذكسيّ أو المسلم، بالفعل مارونيًّا أصيلًا أو أورثوذكسيًّا أو مسلمًا، أي منفتحًا على الغير وعلى الحقيقة أينما وُجدت وعلى الحداثة كلّما هبّت رياحها. ولعلّ مثل السمعانيّ، في هذا المجال، جدير بأن يُحتذى به، لأنّه كان ناجحًا وفعّالًا.

د. طانيوس نجيم،

"السمعانيّ والبرهان الإلهيّ"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٨١.

###

إنّ كتاب الإلهيّات هو موسوعة للإيمان القويم في كلّ ما يتعلّق بالله الواحد المثلّث الأقانيم. منهجيّته واضحة وبراهينه مركّزة وقراءته ممتعة. والتعمّق في سرّ الله الواحد الثالوث يؤدّي في الوقت عينه إلى التعمّق في سرّ الإنسان وإلى مساعدة الإنسان على تحقيق ذاته وتحقيق الصورة التي خُلق عليها، والتي لا يمكن أن تصل إلى كمالها إلّا في العلاقة بالله الآب الذي ظهر لنا في شخص ابنه الأزليّ يسوع المسيح ومنحنا ذاته في روحه القدّوس، وصولًا إلى الاتّحاد به بغية الحياة من حياته.

المطران كيرلّس سليم بسترس،

"الثالوث الأقدس في كتاب الإلهيّات للسمعانيّ"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٩٢.

###

إذا توقّفنا عند قدرة السمعاني الفاعلة والواسعة في التعاطي مع المصطلحات والتعابير الفلسفيّة وقاموس المفردات الفكريّة العربيّة، لقلنا بوجه عفويّ إنّ هذا العلّامة وُجدت لديه البراعة الأكيدة في ما نستطيع أن نسمّيه المثاقفة، حيث إنه نقل فكرًا غربيًّا إلى حدّ الاقتباس مستخدمًا العبارات ذاتها والمفردات عينها التي استخدمها المتكلّمون والفلاسفة العرب في السابق مع الملاحظة أنّه، وبتأثير فكريّ منهجيّ، تحاشى السمعانيّ الحشو والتكرار وتبديل المفردات للمعنى نفسه، ذلك ليكون دقيقًا وجيزًا في عرضه للموضوع وفي منهجيّة الاستدلال العقليّ على هذا الصعيد. غاية العلّامة السمعانيّ هي إفادة الثقافة الدينيّة العربيّة من الفكر الغربيّ ومنهجيّاته. ولا ينسى السمعانيّ أنّه من الشّرق ومن جبل لبنان، فيعيدنا إلى الاختبار الروحيّ لوجود الله كما عاشه الأب انطونيوس حيث سُئِل رئيس الرهبان، على ما يروي السمعاني، كيف حصّل جزيل الحكمة والفهم بغير درس، فأجاب أنّه كان يدرس في كتاب العالم، أعني بالتّأمّل في المخلوقات ورتبتها.

فحوى رسالة السمعانيّ إلينا اليوم، ونحن على أبواب حدث كنسيّ ألا وهو انعقاد المجمع الماروني الباحث في الهويّة والانتماء وغير ذلك من المواضيع، أنّه لا يكفي أن نترجم الفكر الغربيّ، أكان لاهوتيًّا أم فلسفيًّا أم اجتماعيًّا، بل الأهمّ هو أن نستوعب هذا الفكر جيّدًا بلغتنا وثقافتنا التي تجعلنا شركاء مع عالم الثّقافة العربيّة، وأن نؤوّن هذا الفكر أي أن يكون فكر الحالة الحاضرة، فكر النهضة والإبداع الثقافيّ. ربّما أخطأ السمعانيّ في عدم توسيع رؤيته الفكريّة في الأخذ المباشر بعين الاعتبار المعطيات الفلسفيّة العربيّة، إلّا أنّه استطاع مرتاحًا أن يعبّر بلغة عربيّة فلسفيّة متينة ما أراد أن يعدّه عدّةً لاهوتيّة لثقافة كنيسته المارونيّة.

الأب د. سليم دكّاش،

"البعد الفلسفيّ الدفاعيّ لبرهنة وجود الله في "كتاب الإلهيّات" "، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ١١٠.

###

لكنّ جمع المخطوطات وحده لا يكفي. فالسمعانيّ بعد عودته إلى روما أكبّ على فهرسة وترجمة ما جناه إلى لغة أكثر انتشارًا ألا وهي اللّاتينيّة. وستشكّل هذه المخطوطات المادّة الرئيسة لموسوعته "المكتبة الشرقيّة" (Bibliotheca Orientalis) التي لا يزال يُعوَّل عليها حتّى اليوم. يظهر من خلال هذا المؤلّف أنّه لم يترك لغة مشرقيّة "من شرّه": فاللّغات لا تحصى: يقولون إنّه يعرف أكثر من ثلاثين لغة. ورد فيها فهرسة مخطوطات سريانيّة، وعربيّة، وفارسيّة، وتركيّة، وعبريّة، وسامريّة، وأرمنيّة، وإتيوبيّة، ويونانيّة، وقبطيّة، وإيبريّة، وملاباريّة. بتناوله كتاب السّريان النّساطرة والكُتّاب العرب والأقباط، فتح آفاق الآداب الشرقيّة وتاريخها أمام العلماء الأوروبيّين رغم عدم اكتمالها ورغم بعض الأخطاء الّتي تشوبها نظرًا إلى سرعة العمل.

وقد يكون مفيدًا العودة إلى ما كتبه جان باتيست شابو قائلًا: "إنّ المكتبة الشرقيّة لمؤلّفها يوسف السمعاني، ظهرت في روما في الوقت نفسه الذّي توفّي فيه رينودوت (Renaudot)، وتكون بذلك قد أبرزت مخطوطات مكتبة الفاتيكان على أنّها تاريخ الأدب السّرياني الحقيقيّ. وهكذا حجب الحبر الماروني مجد العالم الفرنسيّ!"

لم يكن مجيء السمعاني إلى الشرق، إذًا، للسياحة بعد طول غياب، بل للبحث والتّنقيب. دعت الحاجة إلى العودة إلى الجذور، إلى التّفتيش عن الأصول: اللّغويّة والتاريخيّة واللّاهوتيّة. ووضع كلّ ذلك بمتناول العلماء، بلغة علميّة هي اللّاتينيّة الّتي كانت تفهمها كلّ أوروبّا.

الخوري المطران ناصر الجميّل،

"تأثّر يوسف شمعون السمعانيّ بالتيّارات الفكريّة الغربيّة تمهيدًا للنّهضة"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ١٤٤-١٤٥.

###

الثقافة الغربيّة لم تكن بالنسبة له تغريبًا وانعزالًا وانقطاعًا وليتنة. لأنّ المثقّف الحقيقيّ لا يخاف ولا يلين، إنّما هو شجاع، ذوّاقة، ومحبّ للجمال والحقيقة والحرّيّة والإبداع. إنه الإنسان المنفتح الذي يغني ويغتني في تبادليّة مُحِبَّة.

السمعاني العائش براحة وطمأنينة في روما، المتكرّس لحياة الفكر، كان يحلم باستمرار أن يستعيد الشرق تألّقه وجماله وبهاءه الإنسانيّ والفكريّ والروحيّ، وتظلّ أنواره مشرقة وساطعة، وحركته رائدة في الإبداع والتقدّم والخلاص.

تطلّعاته إلى الشرق كانت في البداية نشر التراث الشرقيّ وترجمته الذي كان في مجمله مخطوطًا ومجهولًا. إلّا أنّ الشوق والتوق إلى إصلاح البنى كان همّه الأكبر في سبيل تقدّم الانسان وعودة الازدهار إلى هذا الشرق الساحر.

في مشاريعه الاصلاحيّة ظلّ السمعانيّ أمينًا لمارونيّته، وملتزمًا بالتطوّر والاصلاح. كان ضدّ التغريب والليتنة وإلغاء الآخر، أو الانتقاص من التراث المشرقيّ الأنطاكيّ الماروني الأصيل. لقد حافظ على التراث، واستجاب للتطوّرات والتغيّرات والتحوّلات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والكنسيّة، فكان رائد الإصلاح والنهوض في الكنيسة المارونيّة وفي سائر الكنائس المشرقيّة، في لبنان والعالم العربيّ. كما أنّه يُعتبر أحد روّاد النهضة العربيّة.

الأب د. أنطوان ضوّ،

"السمعانيّ رائد التفاعل الثقافيّ"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ١٥٠-١٥١.

###

هذا دليل واضح على موقف استجدّه السمعانيّ تجاه التراث الفلسفيّ آنذاك، وهو أنّ، بالنسبة إليه، المعرفة الذهنيّة لا تقلّ أهميّة عن المعرفة الحسّيّة. فبعد ما أكّد الأكوينيّ متّبعًا خطى معلّمه الفيلسوف – أي أرسطو – بأنّ ما من معلومة تأتي إلى العقل ما لم تمرّ بالحواسّ أوّلًا، وبعد أن أتى ديكارت وأثبت نقيض ذلك، أتى السمعانيّ ابن العشرين سنة، وَقَبِلَ الاثنين، آخذًا بعين الاعتبار مفارقتهما. كما يُلاحَظ هنا بأنّ السمعانيّ يفرّق ما بين العلماء وبين عامّة الناس. فبعد أن يثبت ويؤكّد أنّ وجود الله من دون واسطة هو معروف عند العلماء والفهماء، يقول بأنّ الأمر ليس كذلك عند عامّة الناس.

ويتابع السمعانيّ التركيز على الفوارق ما بين الطرح الأوّل الذهنيّ والطرح الثاني الحسّيّ في مسألة إثبات وجود الله. فالأوّل موجّه إلى العلماء، والثاني مخصّص للذين لم يقتبلوا الكتب المقدّسة.

أمّا بالنسبة للعلماء فكان السمعانيّ يعتبرهم أنّهم يعرفون بوجود الله ولا يمكن أن يجحدوا... ومن هذا القبيل يعلّق السمعانيّ على فقرة وردت في أحد المزامير (مزمور ٥٢) وهي: "قال الجاهل في قلبه إنّ الله غير موجود"...يعلّق السمعاني على هذا بقوله:"لم يقل في عقله، لأنّ كلّ عقل يعرف وجود الله بشيء عامّ"... وكم بالحريّ عقل العالِم..."

"وهو انطلق في معالجة الموضوع بثقة عالم ضليع يعالج موضوعًا وكأنّه ديكارت في كتابه التأمّلات، و إن لم يفتح آفاقًا جديدة كما فعل ديكارت في مؤلّفه."

د. ضومط سلامة،

"السمعانيّ والفلسفة الكلاسيكيّة حول وجود الله"، من **كتاب الإلهيّات للعلّامة يوسف شمعون السمعانيّ، من الفلسفة إلى اللاهوت فالنهضة**، لبنان، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ١٥٩-١٦٠

###

وفي اليوم الثاني بعد القدّاس اجتمع البطريرك ومَن كان مِنَ المطارين وروسا [رؤساء] العامّ والأديرة والكهنة والمشايخ وباقي العامّة في الكنيسة. والسمعانيّ اتَّشح بالملابس الحبرويّة وانتصب على درج المذبح. وإذ هم جميعًا مكشوفو الرأس فأخذ الخوري إسطفان ورد تلميذ روميه يقرأ برآآت الحبر الرومانيّ باللاتينيّ والمطران سمعان عوّاد يقرأها بالعربيّ. وبعد قراءتها منحهم السمعاني البركة الرسوليّة نيابة عن الحبر الأعظم.

وتوجّه السمعاني إلى دير قزحيّا ومنه إلى دير مار تادروس التابع دير مار أليشع. ومنه إلى أرز لبنان ومنه إلى بشرّاي. فاستقبله أهلها باحتفال ومعهم من المشايخ الحمادية الشيخ حسين بن عيسى والشيخ مناصر بن موسى. وباتوا تلك الليلة في دير مار سركيس بشرّاي عند البادريّة الكرمليتان.

وفي اليوم الثاني توجّهوا إلى حصرون. وقبل وصولهم التقاهم أهلها بالاحتفال المعتاد ومعهم الشيخ موسى بن عيسى حماده الذي قبّل أيادي السمعانيّ مُظهرًا له مزيد الاحترام والوقار كأنّه ملك. وقدّم له فرسًا ثمينة. وكان المشايخ الحمادية إذا كاتبوا بعضهم في ذاك الوقت وذكروا شيًّا [شيئًا] عن السمعانيّ قالوا المونسنيور السمعانيّ القاصد الرسوليّ من الدولة العليا.

ومنه قام إلى دير القمر قاصدًا السلام على الأمير ملحم ابن الأمير حيدر الشهابيّ حاكم البلاد. فتلقّاه أهل الدير وأدخلوه بلدتهم باحتفال عظيم لايق بشأنه ونزل في دار الشيخ الفاضل.

ثمّ دخل سراي الأمير ملحم فاقتبله هذا الأمير بكلّ إكرام وعزازة. وبعد برهة قدّم له ولأخويه الأمير أحمد والأمير منصور الهدايا التي كان مصحبها معه.

ثمّ انفرد مع الأمير ملحم وفاوضه بخصوص أشغاله وتوجّه إلى قوناقه [منزله]. فالأمير ملحم استدعى إليه الشدياق بطرس فهد العشقوتيّ وأرسله إلى قوناق السمعانيّ ليتمّم له كل مسيولاته [مسؤلاته]. وبعد ذلك تودّع السمعانيّ من الأمير ملحم فقدّم له الأمير ملحم فرسًا ثمينة بعدّة كاملة رختة برخت فضّة ورشمة فضّة.

الأب اغناطيوس سعاده،

من **خماسيّة الأب إبراهيم حرفوش**، جونية، منشورات الرُّسُل، ٢٠١٠، ص ٧٣، ٧٥.